﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾

حرية المعتقد ومحددات العقيدة والتعارف

عبد الرحمٰن السالمي

يستخدم القرآن الكريم أربعة مفردات استنكارية هي: اللهو واللعب والاستهزاء والسخرية، تجاه ثلاث فئاتٍ هي: الكفار والمنافقون وبعض أهل الكتاب. والاستنكار ينصبُّ على مواقف هؤلاء من الدعوة إلى الإسلام، ويشمل ذلك الوحدانية ونبوّة النبي ﷺ، والقرآن، واليوم الآخِر.

إنّ الواضح أنّ هذه الفئات يجمع بينها التنكّر لدعوة النبي ﷺ. إذ يتظاهر البعض بالاستماع والقبول مبدئياً، ثم يلجأ إلى المغالطة والتحريف لعباً ولهواً، مثل المزاح والتشكيك، أو التساؤل عن دلائل النبوّة، وكيف يثبت أنّ القرآن موحىً. حتى إذا أقبل النبي والمسلمون على إيراد الأدلّة والبراهين؛ راح هؤلاء يؤوّلونها ويحرّفونها كأنما لم يفهموا بعد، بينما هم لا يتعاملون في الحقيقة مع مسألة الإيمان بجدية واحترام، وبخاصةٍ نبوّة النبي، والوحي القرآني واليوم الآخِر. أما بعضهم الآخَر فيعمد مباشرةً للهجوم من طريق السخرية والاستهزاء من هذه الاعتقادات كلها.

وفي الحالتين فإنّ القرآن الكريم يطلب من المؤمنين عدم المجاملة أو السكوت لأي سبب، بما في ذلك مغادرة المجالس التي يجري فيها أحد الأمور الأربعة: اللهو واللعب أو الاستهزاء والسخرية. وإذا كان بعض المؤمنين يظنّون أنّ اللاهين واللاعبين والمستهزئين هم أعزُّ منهم لكثرتهم أو سطوتهم؛ فإنّ القرآن يبلّغهم أنّ العزة لله ورسوله وللمؤمنين، وليس لأولئك الذين يتعاملون بتلاعبٍ واستخفافٍ أو استهزاء مع الدّين، مهما بلغت أعدادهم أو سطوتهم.

وكثيراً ما يُلحق القرآن المنافقين بالكفار في المواقف من الدعوة والإيمان. إنما المقصود أنّ المنافقين لا يمارسون الاستهزاء علناً؛ بل يعمدون لأسلوب اللعب واللهو؛ في حين يتجاوز الكفار والملحدون ذلك إلى التصريح بالسخرية والاستهزاء؛ فالافتراق هنا في الأسلوب وليس في المضامين التي يتفق الفريقان عليها. أي إنهم متوافقون في عدم الإيمان بالله والنبوّات واليوم الآخر.

ويتناول القرآن في آياتٍ أكثرها مدني ـ لكنّ القرآن المكيّ لا يخلو منها ـ مواقف بعض أهل الكتاب. إذ المفروض أنّ هؤلاء بينهم وبين المسلمين مشتركات كبرى، هي الإيمان بالله واليوم الآخِر؛ لكنهم في الواقع يتنكّرون لكل شيء، مدّعين أنّ علّة ذلك عدم تصديقهم لنبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامُهُ عليه.

يُثبِّت القرآن حرية الاعتقاد في: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256] وفي: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]. لكنه لا يقبل الإنكار والإعراض بأُسلوبيْه: اللهو واللعب، والسخرية والاستهزاء؛ ولذلك يعود إلى تحديد أُصول الاعتقاد في العقائد الثلاث الرئيسة: الوحدانية، والنبوّات والكتب، واليوم الآخِر. فالقضية مع الكفار والمنافقين الملتحقين بهم هو قضية اختلاف في الأساسيات، وأنه لا تتوافر لديهم الجدية العقلية أو الأخلاقية التي تتيح إمكانيات المناقشة الحرّة والعقلانية؛ بحيث يمضي النقاش من الاعتقادي إلى الأخلاقي أو العكس، أي من الأخلاقي إلى الاعتقادي؛

ولذلك يصل الحوار إلى حائطٍ مسدود، يتراوح بين اللعب واللهو وإلى السخرية والاستهزاء.

ويختلف الأمر مع أهل الكتاب؛ حيث هناك اتفاقٌ على مشتركاتٍ من الناحيتين الاعتقادية والأخلاقية؛ ولذلك لا يجوز ولا يُعقَلُ أن يلجأ بعضُهم إلى التهرّب من مناقشة الأساسيات والمشتركات فيها، بل وإلى التنكر أيضاً إلى الأخلاقيات المترتبة عليها. ولنتأمل مخاطبته تعالى لأهل الكتاب في آية الكلمة السواء: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

وفي الحالتين يترتّب على ذلك ضرورة التعامل بنديّةٍ؛ بحيث لا يُخِلُّ ذلك بقضيتي الإيمان من جهة، والعيش بين البشر من جهةٍ أُخرى. فالمؤمن عزيزٌ بإيمانه، وهو لا يقبل الاستضعاف والاستتباع؛ لكنه لا يتنكّر لمبدأ التعارف والمسالمة الذي استنّه ﷻ للعيش الإنساني، والتعامل بين البشر؛ ومع ذلك يظلُّ طامحاً إلى بلوغ الأُفق الذي تقتضيه المشتركات الاعتقادية بين المؤمنين، وإلى بلوغ مقتضيات أخلاق التعامل والتعارف مع غير المؤمنين. وفي كل الأحوال، وللمرة الثانية أو الثالثة فإنه لا نزول عن هذين الحدَّين بين الاعتقادي والأخلاقي، ومع سائر فئات الناس.

والواقع أنّ الأزمنة الحديثة شكّلت تقلّباً أو مراوحةً بين الحالتين مع العالم؛ فظهرت حالةُ أو موقفُ اللهو واللعب في حالة الغلبة ومواقفها كما في القرنين الماضيين، وظهرت حالة أو موقف الاستهزاء والكراهية في العقود الأربعة أو الخمسة الأخيرة. في الحالة الأولى ـ أي في أزمنة الاستعمار، وظهور نظام العالم الغربي ـ كانت الأشياء تُسمَّى بغير أسمائها، وكان المسلمون يلجأون إلى أحد موقفي التمرد أو الاستضعاف، بالنظر إلى أنّ المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون. وفي الحالة الحاضرة توشك أن تسودَ حالة الإنكار والتنافُر والكراهية بين المسلمين وبين العالم.

وبالطبع لم يعد من الممكن وضْعُ الأمور في جانبٍ واحدٍ أو قالبٍ واحد؛ إذ في حالة الشكّ وعدم اليقين يكون من الضروري العودةُ إلى الأصول؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، ويقول: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]. ولنتأمل مقولة القرآن الكريم بين العدل والقسط نجدها واحدة في حالتي الرخاء والشدة؛ فإذا كنا قبل قرونٍ في حالة العدل أو متطلباته باعتبار العزة والقوة؛ فنحن اليوم في حالة القسط، وهي حالةٌ دفاعيةٌ بحقٍ؛ لكنها لا تشكّل يأساً ولا استسلاماً؛ لأنّ ذلك يتنافى مع عزة الدّين والإيمان التي منحنا الله ﷻ إيّاها بمقتضى الإيمان بالله والثقة به وبوعده: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]. وقد أخبرنا ﷻ بل أرشدنا إلى المُعادل أو المُوازن لحالة القسط الحالية في الآية القرآنية الرائعة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ [البقرة: 256] وقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63]؛ فحالة القسط تقتضي التضامُن وتأليف القلوب، وجمع الهمم، والاستنصار بالإيمان العميق، بحالة السكينة التي أنزلها سبحانه على قلوب المؤمنين بعد وقعة (أُحُدٍ) الفاجعة والقاسية.

إنّ حالة (أُحُد) والعودة إليها ليست عودةً إلى الماضي للتعزّي فحسْب؛ بل إنها درسٌ أراد لنا ﷻ أنّ نتأمّله ونستفيد منه في الظروف المشابهة أو المُقاربة. إنّ حالتنا ـ ونحن نقع إزاء العالم بين اللهو والتلاعب، أو الكراهية والاستهزاء ـ تضعُنا في مواجهة: «**واذكروا**»، التي هدانا ﷻ برحمته إليها. وإذا كنا قد وقعنا على شفير الهوان مع الناس؛ فالأمر على غير ذلك مع رب العزة والرحمة الذي يُرينا آياته في الآفاق وفي أنفسنا.